إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)

السنة السابعة ـ العدد السابع والعشرون ـ خريف ١٣٩٦ش/ أيلول ٢٠١٧م

صص ٥٠ ـ ٢٧

عملية فهم النص على ضوء رؤية سوسور فى سورة "آل عمران"؛ المحور الاستبدالى نموذجا

مجيد صالح‌بک (الكاتب المسؤول)*

كمال‌الدين محمد مطهر**

الملخص

إنّ البنيويّة تذهب إلى أنّ النص لا يتألّف من الوحدات أو الكلمات ذات وجود مستقل أو منفرد، وإنما من الوحدات التى توجد داخل البنية أو النسق بحيث تضبط تلك البنية علاقات الكلمات وتعطيها معنى وقيمة أو بهاءا ورونقا، فضلا عن مواصفاتها وخصائصها الفردية. ومن أهمّ المباحث التى تهتمّ بها بنيوية سوسور فى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى المحور الاستبدالى، إذ إنّ سوسور ذهب إلى أنّ هناک نوعا من العلاقة اللغويّة بين الكلمة التى جاءت فى النص والكلمات التى تكون ذات صلة لفظيّة أو معنويّة بها غير أنّها ما جاءت فيه وسمّى هذا النوع من العلاقة بالعلاقة الاستبداليّة بحيث إنّ عدم الاعتداد به ينجرّ إلى إهمال المعنى المقصود. فالنص الأدبىّ بناءً على رؤية سوسور يجد اعتبارا وأهميّة خاصة كأىّ نصّ لغوىّ، وذلک باعتداده على المحور الاستبدالى. فانطلاقا من هذه الفكرة تحاول هذه المقالة أن تدرس التفكير البنيوىّ لسوسور معتمدة على المحور الاستبدالىّ فى سورة آل عمران لتجلّى أمر الوحدانيّة فى الألوهيّة والربوبيّة والمالكيّة، أى: الاعتقاد بوحدانيّة الله واستمرار إشرافه على شؤون العباد وملكيته بالنسبة لما يملكه الإنسان بشكل نسبىّ ومؤقّت وكلّ ما يكون فى السّماء والأرض واحتوائها على الاستبدالات الصرفية الكثيرة التى تكون ذات اتصال قويم بأمر الوحدانية وتسعى للكشف عن أثر استبدال بعض الكلمات الصرفية بالكلمات الأخرى الذى تمّ فى إطار النظام. ونتيجة إحصاء الاستبدالات الصرفية تدلّ على أنّ سبب اختيار بعض الكلمات الصرفية تتفق تماما مع ما تتطلبه كليّة السورة، أى: الوحدانيّة بحيث نجد صلة وثيقة بين معنى الكلمة الصرفية المختارة أو المستبدلة والمعنى الذى تهدف إليه كليّة الصورة وفضلا عن ذلک تشير إلى أنّ استخراج الكثير من المعانى المستورة فى سورة آل عمران يرتبط بهذا المحور وللاهتمام به دخل كثير فى كشف معالم الإعجاز فيها.

الكلمات الدليلية: سوسور، البنيويّة، المحور الاستبدالىّ، آل عمران، الوحدانيّة.

---

*. أستاذ مشارک فى اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران
msalehbek@gmail.com

**. طالب مرحلة الدكتوراه فى اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران
kamaleddinmotahar@gmail.com

تاريخ الاستلام: ١٣٩٦/٤/١٢ش تاريخ القبول: ١٣٩٦/٧/٢٩ش

Archive of SID
www.SID.ir

المقدمة

سوسور بوصفه رائد البنيوية يؤكّد على أهميّة المحور الرأسى أو الاستبدالى للحصول علـى المعنى المطلوب داخل النص ويجد المحور الاسـتبدالى عنـده عناية خاصة إذ إنّ الباحث الأدبى يسـتطيع باستعانة هذا المحور أن ينتخب بين الكلمات ذات معنى واحد على المحور الرأسـى كلمة متناسـبة مع ما تبتغيه البنية فعندما تقع مفردة فى أىّ جملة لا شـكّ أنه يتمّ اختيار هذه المفردة من سلسـلة عمودية من الوحدات اللغوية التى يمكن أن تقع محلها.

فالمحور الاستبدالىّ يعدّ من أهم المواضيع التى ألقى سوسور الضّوء عليها بالنسبة إلى تحليله اللغوى فى عملية فهم النص، فهو إيجاد الكلمة أى ما تسـتثيره الكلمة من معنى خارج السـياق من خلال علاقة هذه الكلمة بكلمات أخرى فى الذاكرة، وغايتها معرفة علاقـة الكلمة المذكورة فى النص بالكلمات التى من واديها وسـبب اختيارها. وبما أن القرآن ينطوى على معالم الإعجاز ويملک نصا ذا لون أدبى بحيث يحمل فى طياته، وعلى سطحه ألوانا من الجمال الذى يؤثر فى النفس اخترنا سورة آل عمران منه لدراسة هذا المحور.

خلفية البحث

لقد اعتدّ عدد كثير من الباحثين بالدراسة البنوية فى الآيات وسور القرآن بالطُرق المختلفـة، وأغلـب هذه الدراسـات التطبيقية ألقـت الضوء على نظـم الآيات بمعونة المسـتويات التركيبيـة، والصرفية، والدلالية وغير ذلک. فصحيـح أنّ القرآن لا يعتوره الفقر فيما يرتبط بالدراسـات البنيوية غير أنّنا لم نقف على دراسة تنفرد بدراسة المحور الاسـتبدالىّ فى إطار النظام كما يذهب إليه سوسور إلا بعض الدراسات المتفرقة التى وجدناهـا فى بعض المقالات، منها: مقالـة : «الإعجاز البيانى للقرآن الكريم من خلال أسلوبيّة الانزياح (دراسة وصفية-تطبيقية): للدكتورة آفرين زارع ونواديا دادبور، اللتين تميطان اللثام عن الانزياح الاستبدالى فى قسم من مقالتهما، أى الانزياح الذى يقع فى جوهر الكلمة، أى: الاسـتعارة، الكناية، المجاز المرسل، والتشـبيه، و«التعليل الصرفى

Archive of SID

www.SID.ir

فــى الدراســات اللغوية العربية الحديثــة» لأحمد صفاء عبد العزيــز عبدالكريم العاتى الذى يدرس فى قســم من مقالته المســتوى الفونيمى والمورفيمى للكلمات الصرفية لا استبدال الكلمات الصرفية وأثره فى إثراء المعنى كما ندرسه فى دراستنا هذه فيبدو أن الدراسات والأبحاث لهذا المحور قليلة فى القرآن وذلک يزيد بحثنا أهميّة.

أسئلة البحث

انتبهنا إلى أنّ المحور الاســتبدالى يعدّ من أهمّ المواضيع التى تؤكّد سوســور عليها فاســتجابةً لأهمية هذا المحــور فى القرآن، تهدف هذه المقالة إلــى إضاءة جوانب المحور الاســتبدالىّ مــن الناحية النظرية والتطبيقية فى ســورة آل عمــران. فمن هذا المنطلق حاولنا الإجابة عن هذه الأسئلة:

١. لماذا يؤدّى تطبيق هذا المنهج فى القرآن إلى كشف معالم الإعجاز؟
٢. بأىّ صورة يمكن الحصول على النماذج الاستبداليّة فى هذه السورة؟
٣. إلى أىّ شىء يدلّ إحصاء الاستبدالات الصرفية فى هذه السورة؟

أهميّة البحث

بدا لنا بعد قراءة العديد من الدراسات القرآنية أنّ معالجة المحور الاستبدالىّ بالنسبة لاســتبدال الكلمات الصرفيــة فيها قليلة، هذا من جانب ومــن جانب آخر بما أنّ هذا البحث يســعى إلى إحصاء الاســتبدالات الصرفية التى تكــون ذات ارتباط بأمر كلية الســورة فى ســورة آل عمران تزداد أهميته. وسبب اختيار سورة آل عمران دون باقى السّور يرجع إلى أهميّة هذه السّورة، واشتمالها على موضوع الإيمان بوحدانيّة الله تعالى وأيضا الإيمان باســتمرار إشــرافه على أمور الناس وملكيته بالنسبة لما يملكه الإنسان بشــكل نسبىّ ومؤقّت وكلّ ما يكون فى السّماء والأرض وما يتعلّق بأمر الجهاد والحجّ والإنفاق والصبر والتقوى و... . فإنّ دراســة هذه المواضيع دراســة مستقصية تستدعى الاعتداد بهذا المحور دون ريب. وأما ســبب اختيار بعــض الآيات فيها يعود إلى عدم سماع البحث للقيام بدراســة كاملة تشــمل جميع الآيات التى قمنا بتحديد الدلالة فيها بالاستعانة من هذا المحور.

Archive of SID

www.SID.ir

منهج الدراسة

لا يعدو المنهج المتخذ أن يكون وصفيا وتحليليّا لهذا المحور وفق رؤية سوسور وذلک بارتكازه على المحور الاستبدالى.

مصطلحات البحث

بنيوية سوسـور من أهمّ المناهج النقدية التى ترتكز على اللغة، وترى اللغة الطريقة الوحيدة للاهتمام بالعوالم الشـكلية والتعبيرية للنص، والمنهج الذى يرى اللغة الطريقة الوحيدة للحصول على المعنى ليس بمقدوره أن يُلمّ بالظّواهر المدروسة من كلّ جوانبها. يقول ليونارد جاكسـون فى كتابه المعنون بـ"بؤس البنيويـة الأدب والنظرية البنيوية": «يصوّر سوسـور اللغة بوصفها نظاما بنيويّا يشكّل أساسا لكلّ استخدام لغوىّ، أو لكلّ كلام، سـواء كان نطقا أم كتابة. وثمّة عنصر ثان هو العلاقة الاعتباطيّة فى جوهرها بين أصوات اللغة والمفاهيم التى تعبّر عنها هذه الأصوات.» (جاكسون، ٢٧: ٢٠٠٨) وذلک مـا اهتدى إليه عبد القاهـر قائلا: «مما يجب إحكامه أنّ نظم الحـروف هو تواليها فى النطـق فقط، وليس نظمها بمقتضىً عن المعنـى ولا الناظم لها بمقتفٍ فى ذلک رسما من العقل اقتضى أن يتحرّى فى نظمه لها ما تحرّاه. فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان فى ذلک ما يؤدّى إلى الفساد.» (الجرجانى، ١٩٩٥: ٥٦)

فمنهج سوسـور هـو منهج وصفىّ، وفيه توصف اللغة بوجه عـامّ على الصّورة التى توجـد عليها فى نقطة زمنيّة معيّنة. «ومن الأهداف التى يهتمّ بها المنهج الوصفىّ -كما صرّح بذلک دى سوسـور نفسه – تحقيق مبادئ قابلة للتطبيق عالميا على كل اللغات.» (پاى، ١٩٩٨: ٦٣) وأهمية هذا المنهج تتجلّى فى أنّه يسـمح «بجمع المعلومات الحقيقيّة والتّدقيـق والتفصيل لظاهرة موجودة فعلا فى مجتمع معـيّن، فيضع النقاط على حروف المشـكلة الموجودة، كما أنّه يمكننا من معرفة ما يفعله الأفراد فى مشـكلة ما، ويستفيد بذلک من آرائهم وخبراتهم باتخاذ القرارات المناسبة التى يتمّ تعميمها فى مشاكل ذات طبيعة مشـابهة لها.» (نابى، ٢٠١٠-٢٠١١ :١٣) مهما يكن من شىء فيؤكّد سوسور فى منهجـه على مجموعة من الثنائيات، كالدال والمدلول، واللغة، والكلام، والسـانكرونيّة

Archive of SID

www.SID.ir

والدياكرونيّة والمحور التركيبيّ والمحور الاستبدالىّ[1].

المحور الأفقى – الرأسى «التركيبى والاستبدالى»

يذهب سوسور إلى أنّ التعيين والتّحديد للعلاقة بين المفردة والدلالة لا يمكن إلا وفق المحورين "التركيبيّ والاستبدالىّ"، ويعتقد أنّ الجملة تتكوّن من الوحدات اللغويّة، والألفاظ، والألفاظ هذه قبل وقوعها فى الجملة تكون متباينة فى شكلها الفردية ولا تدلّ على دلالة ما، ولكن بمجّرد وقوعها فى مجاورة المفردات والوحدات اللغويّة تقع فى خط واحد وتشكل جملة ثم تدلّ على دلالة خاص، والحال قبل الوقوع فى الجملة تمكن أن تدلّ على أىّ شىء «فالعلاقات التركيبية أو السياقية فى نظره علاقة حضورية لأنّها تقوم على عنصرين فأكثر كلّها متواجدة فى نفس الوقت ضمن سلسلة من العناصر موجودة بالفعل.» (دى سوسور، ١٩٨٥: ٣٦١) وهذا يسمّى عنده "المحور التركيبيّ، الأفقيّ" أو بعبارة أخرى"المجاورة".

وأمّا "المحور الاستبدالىّ" الذى تهدف هذه المقالة إليه فيرى سوسور «أنّ العلاقة الرأسيّة أو الاستبداليّة تنعقد كما أسلفنا عنها الذكر بين كلمة موجودة فى السياق وعدد آخر من الكلمات من خارج السياق، ولهذا فهى علاقة غياب قائمة على التداعى.» (عبدالعزيز، ١٩٩٠: ٣٥) فالعلاقة الرأسيّة تقوم على تقابل بين عنصر لغوىّ وعناصر أخرى يمكن أن يستبدل بها وتحلّ محلّه فى نفس السياق. والواقع أن «علاقات التداعى أو الترابطية تجمع بين عدد من العناصر بصورة غيابية ضمن سلسلة وهميّة موجودة بالقوة أو بعبارة أخرى هى مجموعة من الوحدات التى يمكن أن تظهر فى نفس النقطة من الملفوظ والتى لا يجوز للمتكلم أن يختار منها سوى واحدة لا غير تاركا جميع ما سواها وذلك بسبب الصفة الخطية للخطاب.» (دى سوسور، ١٩٨٥م: ٣٦١-٣٦٢؛ والصويان، ٢٠٠١م: ١٢٧) وأخيراً بإمكاننا القول إنّ هذه العلاقة هى العلاقات الناتجة عن انتماء الوحدات الصرفيّة أو الكلمات إلى صنف واحد، يمكن أن تستبدل فيه بوحدات أخرى فى نفس الموضع.

---

1. - signifier 2-signifiant 3-Languge 4-Parole 5-Synchronic 6-Diacronic 7-Syntagmatiqes 8-Paradigmatiques

Archive of SID

www.SID.ir

هيكل البحث

من يستقرئ القرآن ينتبه أنّه يسوده نظم واحد وبنية السُوَر تكون متشابهة وفى الحقيقة يكون القرآن بمثابة كتاب له فصول متعددة غير أنّ هذه الفصول رغم استقلاليتها فى الموضوع تتمتّع بنظم واحد، أو بمثابة الدّرر الصغيرة والكبيرة التى تنتظم فى سلك التوحيد ولها تنظيم موحّد. فبنية آل عمران لا تعدو أن تكون كبنية بقية السُوَر، ويكون ترتيب إبراز الموضوعات على ما يلى:

-الوحدانيّة فى الألوهيّة

يغلب محور الوحدانيّة فى الألوهيّة على غالبية السورة، إذ إنّ المسلمين ما إن بنوا دعامة مجتمعهم حتى واجهوا الدّعايات السلبيّة والفتن المتعددة، فعليهم «أن ينتبهوا إلى دورهم البيّن والتاريخىّ أمام أهل الكتاب ليحفظوا اتّفاقهم فى التوحيد... .» (بازركان، ١٣٧٥ش: ١٠٢/٢) وترى أنّ «كلمة الله ظهرت بشكل تبهر العين فى السّورة.» (المرجع نفسه: ٣٦/٢و٩/١) الآيات: ٢،٦،١٨،٦٢ و... .

-الوحدانيّة فى الربوبيّة

كان «أهل الكتاب والمشركون يعتقدون بوحدانيّة الله غير أنّهم ذهبوا إلى أنّ الله أودع حفظ السماء والأرض وتدبير شؤونهما إلى آلهة مثل الملائكة، والأشجار و... .» (المرجع نفسه: ٢٦٦/١) ولذلک يردّ الله تعالى ما يذهبون إليه ردّا عنيفا بالآيات التى تؤكّد استمرارية ربوبيّته فى شؤون الناس. الآيات: ٢٦،٢٧،٣٦،١٩٢،١٩٣،١٩٤ و... .

-الوحدانيّة فى المالكيّة

إنّ الاعتقاد بمالكية العالَم الإلهية وربوبيته وتدبيره المستمر يعتبر الحجر الأساس لبقيّة القضايا التوحيديّة. الآيات: ٢٦،١٢٩،١٨٠و... .

-رسالة النبى

تتطلّب وحدانية الله فى الألوهية أن يهدى الناس ولا يدعهم وشأنهم غير أنّه لا يُجبر الناس بقبول الدين الحق بل اكتفى بإرسال الأنبياء حتى يكون الناس أحرارا فى قبول الدين الحق و رفضه. الآيات: ٣٢،٦٤،٦١ و... .

-نزعة الناس

انقسم الناس أمام رسالته السماوية إلى فريقين: الفريق الأوّل هو الذى انقاد

Archive of SID

www.SID.ir

واستسلم أمام الأوامر الإلهيّة، والفريق الثانى هو الذى تمرّد ورفض الرسالة السماويّة. الآيات: ١٣٤، ١٦٧، ٢١ و... .

الأول: المومنون: المؤمنون هم الذين آمنوا بالله وبالنبيّ ولم يدعوه وشأنه بل تذوّقوا مرّ الحياة وحلوها إلى جانبه. والمنافقون فى القرآن هم الذين لا يتّفق قولهم وعملهم، ويقولون فى العلانيّة خلاف ما يذهبون إليه فى السّر.والمشركون هم الذين أعلنوا فى بداية الإسلام عداوتهم مع الإسلام وكانوا يتحيّنون الفُرص لإلحاق الخسائر النفسيّة والمادية بالنبيّ والمسلمين.

-ابتلاء المسلمين: الآيات: ٢٠٠،٩٧،١٠٢،١٨٦،١٠٤،١٤٦، و...

الأول: الجهاد: الجهاد فى سبيل الله يقترن مع الإمدادات الغيبيّة والإلهيّة كما يشير إليها الله تعالى فى غزوة بدر وهى أثر واضح من وحدانيّة الله تعالى وربوبيّته التى هى كليّة السورة. الثانى: الإنفاق: إنّ الإنفاق فى سبيل الله مصدر العمل والنشاط وتحرير الأفكار من الأميال الدنيويّة وبالتالى إيجاد الرغبة فى الناس للحضور فى الحرب كما أنّ البخل يؤدّى إلى عكس ما نحن فيه، أى: الضعف والمذلّة و فقد الإرادة و... وفى النهاية الهلاك. الثالث: الصبر والتقوى: يشجّع الله تعالى المسلمين فى الكثير من الآيات بالصبر والتقوى لأنّ الذى لم يتسلّح بالصبر والتقوى فليس بإمكانه أن يبقَ على طريق التوحيد.

-قصة الأنبياء: الآيات: ٩٥،٥٩،٥٢،٤٥ و... .

الأول: قصة إبراهيم: ما جاء من موضوع فى سورة من سور القرآن إلا ويهدف إلى ما تهدف إليه كلية السورة. فيتماشى ذكر قصة إبراهيم مع كلية سورة آل عمران التى هى الوحدانيّة، لأن إبراهيم هو أسوة للجميع فى الاعتقاد بوحدانيّة الله ويمكن القول إنّ قصة إبراهيم تعتبر رمزا للوحدانيّة التى هى ما تهدف إليه كليّة السورة.

الثانى: قصة آل عمران: آل عمران هم وارثو آل إبراهيم، وبما أنّ بنى إسرائيل بعد ما كانوا فى القرون المتمادية تحت تعليم الأنبياء انخرطوا فى سبيل العدم والزوال، فمنّ الله عليهم ونجّاهم بإرسال أنبياء آل عمران الذين هم واصلوا رسالة إبراهيم. فهم سقوا جنة التوحيد من جديد وربّوا براعم الأخلاق والإنسانية وأصبحوا أسوة لعمران

Archive of SID

www.SID.ir

النفوس والمجتمعات البشريّة.

-العاقبة

يتحــدّث الله تعالى عن عاقبة الحق والباطل بصور مختلفة فتظهر هذه العاقبة بصورة العــذاب، أو جهنم للكافريــن و... والرحمة أو الجنة للمؤمنــين و... . فمصيرهما واضح وضوح الشمس وذلک ما تقتضيه الوحدانية. الآيات: ١٩٧،١٣٦،١٠٧،١٠٦،٤ و... .

المحور الاستبدالی

ويتمّ ذلک "كما بيّنا سابقا" إما باحلال وحدة محلّ الأخرى أو مجموعة من وحدات محــلّ الأخرى، فهو اختيار الألفاظ، للإبانــة عن المعانى الجليلة، اسما، أو فعلا، أوحرفا. والانتبــاه إلى هذا الأمر، أى: اختيار المفردة من بين اثنين أو مجموع من الكلمات ليس أمرا ســهلا كما يظن، ولا ينتبه ســرّ ذلک إلا «من أوتى حظّا وافرا من الذوق والمعرفة كما يذهب إليه عبد القاهر الجرجانى.» (الجرجانى، ١٩٩٥: ٢٢٤)

وهذا التوفيق فى الاختيار، أو الإخفاق، يعدّ أحد الأسباب التى بها تتفاوت مراتب الكلام قوة وضعفا. ومن يتفقّد ســورة آل عمران، ينتبه أنّ المفردة تنتخب بحســب ما تستدعيه البنية كنظام أو لما تحتوى من المعانى المنشودة التى يهدف إليها النظام.

فلألفــاظ «تثبت لها الفضيلة وخلافها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها أو ما أشــبه ذلک مما لاتعلق له بصريح اللفظ ، ومما يشــهد بذلک أنک ترى الكلمة تروقک وتؤنسک فى موضع ثم تراها بعينها تثقل عليک وتوحشک فى موضع آخر.» (الجرجانى، ١٩٩٥م: ١٦) و«حينما ينتقل عبد القاهر إلى المقارنة بين اللفظة تستحسن داخل سياق وتثقل على الســامع فى سياق آخر دلالة على المحور الرأسى الاستبدالى فالاستحسان والوحشــة يرتبطان بممارسة الاختيار، والاختيار أســاس علاقة الاستبدال.» (حمودة، ١٩٩٨م: ٢٥٦)

مهما يكن من شــىء فهناک مواضع كثيرة فى ســورة آل عمران تمّ فيها الاستبدال بحســب ما يســتدعيه النظام بحيث تزيد عليه الدقة والبيان فاخترنا نماذج منه ودرسناه دراسة كاملة وجامعة: منه:

Archive of SID

www.SID.ir

-استبدال الفعلية بالإسمية

إنّ الفعل «يدلّ على التجدد والحدوث والاسم يدلّ على الثبوت والتأكيد. فالجملة التى مسندها فعل تدلّ على الحدوث والجملة التى مسندها اسم تدلّ على الثبوت.» (السامرائى، ٢٠٠٧، ١٥/١) مهما يكن من شىء فقد تقع الاسمية موقع الفعلية على المحور الاستبدالىّ لإفادة الثبوت والدوام. منه:

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ...﴾ [آل عمران: ١٦٠]

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩]

وهكذا فيما يتعلّق بالكافرين:

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢]

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]

فلم يقل فى جواب الشرط فى الآية الأولى: «لا تغلبوا ، يحببه الله، وفى الثانية: يُعطكم أجرا، وفى الآية الثالثة: لا تُغلبوا. وقس عليها بقية الأجوبة على ضوء رؤية بعض النّحاة.» (ابن عاشور، ١٩٨٤م: ١٥٣/٤؛ الأنصارى، ٢٠٠٩م: ١٤٣/١) لأنّ من منطلق كلية السّورة لاحاجة إلى تقدير الجواب كما يذهب إليه النّحاة ويقدّرون الفعل، إذ إنّ جواب الشرط يقتضى الاسميّة بسبب إفادتها الدوام والثبوت والتأكيد. فالله تعالى ينصر المؤمنين فى الحرب مع الكافرين ويحبّهم ويعطيهم الأجر وذلك ما تطلّبه كلية السورة، أى: الوحدانية لأنّ ما من حزب من أحزابه وهو نصرهم بسبب صبرهم وتقواهم إلا وهم غلبوا أعدائهم. ففوزهم قطعىّ وحتمىّ بالتأكيد والدوام والثبوت بسبب نصرته فيتطلّب الجواب الجملة الاسمية لا الفعلية التى تفيد التجدد، كما يعلم بسبب ربوبيته أن الظالمين ظلمهم أمر ثابت وقطعىّ ولا أمل برجوعهم منه بسبب افترائهم على الله فهو سريع إلى محاسبة أعمالهم بالدوام والثبوت. والاستبدالات الصرفية تؤيد صحة ما نحن فيه:

www.SID.ir

جدول تواتر استبدال الفعلية بالاسميّة:

–	عدد التواتر	النسبة المئوية
مجيء جواب الشرط اسمية فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين	١٩	٤٧/٥
مجيء جواب الشرط فعليّة	٢١	٥٢/٥
المجموع	٤٠	٪١٠٠

-استبدال الماضى بالمضارع والمضارع بالماضى

ليس بإمكان الصيغ الصرفية أن تستوعب جميع الحالات فى الاستعمال إذ إنّ التحديدات الصرفيّة للعلماء تتعلّق بما يسمّى الزمن الصرفىّ وتحديد الزمن الأفقىّ هو ما تحدّده البنية أو النظام كما يذهب إليه سوسور. فالزمن الأفقىّ «هو شبكة زمنيّة تتّخذ نسيجها من الصيغة الفعلية وما يتولّد عنها من اتجاهات نحويّة وما يضاف إليها من صيغ حدثية غير فعلية وصيغ مركبة و قرائن مع ملاحظة الجمل والأساليب التى تقع فيها تلك الأنواع من الصيغ.» (توامه، ١٩٩٤م: ٢٧٥) وبناءً على ذلك «إنّ تحديد الزمن فى المستوى الأفقىّ أو فى التركيب وظيفة البنية وليس وظيفة صيغة الفعل، لأن الفعل الذى على صيغة "فعل" قد يدلّ فى السياق على المستقبل، والذى على صيغة المضارع قد يدلّ فيه على الماضى.» (حسان، ١٩٩٤م: ١٠٤) وذلك يعنى استبدال الماضى بالمضارع والعكس صحيح. ومن الأول قوله تعالى:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ.. وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا ...﴾ [آل عمران: ٣٦]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ ...وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ ...﴾ [آل عمران: ٧٨]

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧]

Archive of SID

www.SID.ir

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]

﴿وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]

لم يقل "كان، و..." بل قال "يكون، و..."، جاء فى زهرة التفاسير: «ولم يقل كن فكان، وهو المناسب للماضى، وذلك لأن التعبير بالمضارع دائما فيه تصوير وإحضار للصورة الواقعة كما وقعت، ومن جهة أخرى فصيغة المضارع فى هذا المقام تنبئ عما كان، وتومئ إلى ما يكون بالنسبة لخلق الله تعالى المستمر فى المستقبل كما كان فى الماضى وقد بيّن سبحانه أن هذا هو الحقّ الثابت المستمر.» (أبوزهرة، لاتا: ١٢٥١/٣) فتَجَلّى قدرة الله بسبب الوحدانية يستمرّ فى الحال والمستقبل. وفى الآية الثانية: إنّ السياق سياق الأفعال الماضية فكأنّه قال: وإنى أعذتها بک وذريتها، غير أنّه عبّر عن الإعاذة بالمضارع لإفادة الاستمرار لأنّ الشيطان لا يُوقع النّاس فى فخّه عند الولادة فقط بل هو مستمرّ فى إغوائه الناس طيلة حياتهم. فكما أنّ الشيطان مستمر فى إغوائه الناس، كذلک المؤمنون تستمرّ ارشادهم وتدبير شؤونهم إلى يوم القيامة.

وعبّر عن أقوال المشركين وأفعالهم بالمضارع بسبب كلية السورة لإفادة الاستمرار لأنّهم يرتكبون بالاستمرار ما يستحقّون به العقوبة. وذلک كان دأبهم وعادتهم المعتادة. فالله بسبب وحدانيته فى أمر الربوبية التى تفيد الاستمرار فى تدبير شؤون العباد والإشراف عليها فى كلّ الأزمنة يعلم أنّ المشركين يستمرّون ويتابعون ما كان عليه آباؤهم ويتحيّنون الفرص لإلحاق الخسائر النفسية بالنبىّ والمسلمين .

فالسياق فيما يرتبط بالمؤمنين سياق المدح وهم كانوا يؤيّدون بالقول استمرار الوحدانية فى الربوبية التى هى كلية السورة كما أسلفنا عنه الذكر مرارا. وهكذا يعبّر عن التوكّل على الله سبحانه وتعالى بالمضارع لإفادة استمرار إشرافه فى كلّ ما يعتريهم من مصائب الدنيا، وقدّم المجرور فى أسلوب قرآنى رفيع لإفادة الاختصاص. وذلک يتماشى مع كلية السورة إذ إنّ الاستمرار فى التوكّل يتطلّب استمرار أمر الربوبية التى ينكرها المشركون بالتأكيد. ويمكن إحصاء هذا النوع من الاستبدال فى كلّ السورة كما

Archive of SID

www.SID.ir

يلى:

	عدد التواتر	النسبة المئوية
المضارع الذى يفيد الاستمرار بالاستبدال	١٨	١٤/٥٢
المضارع الذى يفيد الاستمرار دون الاستبدال	١٠٦	٨٥/٤٨
المجموع	١٢٤	٪١٠٠

وأما استبدال المضارع بالماضى فيغلب التعبير عن المستقبل بلفظ الماضى «إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهدّدة المتوعّد بها فيعدل فيه إلى لفظ الماضى تقريرا وتحقيقا لوقوعه كقوله تعالى: نفخ فى الصور فصعق.» (الزركشى، ١٣٩١ش: ٣٧٢/٣) فقد تقتضى البنية، المضارع غير أنّ الماضى يقع مكانه لإفادة التحقق وذلک فى قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]

﴿رَبَّنَا إِنَّکَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]

﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ...﴾ [آل عمران: ١٠٦]

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣]

فى الآية الأولى لم يقل "يهدى" بل قال "هدى"، لأنّ المعتصم بالله متوقع وهو المناسب للمضارع، غير أنّه عبّر عن المضارع بالماضى للدلالة على أنّ من يلتجئ إليه "تعالى" ويعتصم بحبله فقد تحقّقت هدايته وثبتت استقامته. وفى الآية الثانية لم يقل: تخزيه، وعبّر عن المضارع بلفظ الماضى تنزيلا للمتوقع منزلة ما وقع، إذ إنّ خزيهم أمر قطعىّ وحتمىّ. وقس عليهما "آتاهم، واسودت" فى الآية الثالثة والرابعة.

وفى الآية الخامسة لم يقل "يسلم"بل قال "أسلم" لأنّ السياق سياق المضارع غير أنّ الله تعالى عبّر عن الإسلام بالماضى لإفادة التحقق والتأكيد على أمر الإسلام الذى

Archive of SID

www.SID.ir

هو كلية السورة وتقديم الجار والمجرور يزيدان هذا التأكيد ويخصّانه بالله تعالى دون غيره. ويؤيّد ما نحن فيه قوله تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ [الرعد: ١٥]

يستدعى عمل السجود كأمر الاسلام الاستمرار.فما استبدل المضارع بالماضى إلا لتوكيد أمرالوحدانية التى هى كلية السورة. وأمّا إحصائه فإنه كالتالى:

	عدد التواتر	النسبة المئوية
مجىء الماضى بالاستبدال للدلالة على الحتمية	٥٦	٥٨/٣٣
مجىء الماضى دون الاستبدال للدلالة على الحتميّة	٤٠	٤١/٦٧
المجموع	٩٦	./١٠٠

استبدال الفعل بالفاعل

قد يستبدل الفعل بالفاعل لأنّ الفاعل تتّسع دائرة الزمان فيه ويدلّ على الحاضر والمستقبل كما يدلّ على الماضى. منه:

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ...﴾ [آل عمران: ٢٦]

لم يقل تجمع بل قال جامع إذ إنّ كلية السورة، أى: الوحدانية تستدعى أن يجمع الله الذين عاشوا فى الأزمنة الماضية والبعيدة والذين يعيشون فى الحاضر والذين من المقرّر أن يعيشوا فى المستقبل. ولم يقل تملك بل قال مالك بسبب وحدانيته فى أمر الملكيّة لأنّ ملكيّة جميع ما فى السموات والأرض فى كلّ الأزمنة تختصّ به دون غيره وما يتصرّف فيه الناس مؤقّت ونسبيّ وليس قطعيّا وإن تداول بينهم. ومنه :

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾]آل عمران: ١٧]

﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥]

﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران:]

Archive of SID

www.SID.ir

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]
﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آلعمران: ١١٠]

لم يقل الذين صبروا وصدقوا وقنتوا وأنفقوا واستغفروا بل قال الصابرين و... لأن الأفعال مقيّدة بالزمن والفعل الماضى مقيّد بالزمن الماضىّ على الأغلب فلذا استبدل الماضى بالفاعل للدلالة على ثبات ما هم عليه بسبب أنهم أخبروا بهذه الصفات عن أنفسهم من الثبات على أمر الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والقرار على الاعتقاد بها والابتعاد من أن ينصرفوا عنها . وذلک بسبب اعتقادهم بكلية السورة.

ولم يقل الذين كذّبوا وكفروا والذين فسقوا بل قال الكاذبين والكافرين والفاسقين لأنّهم عكس المؤمنين أخبروا بهذه الصفات عن أنفسهم من الثبات والبقاء على ما هم عليه، أى: الكذب والكفر والفسق وهى ناتجة عن عدم اتقائهم الله والاعتقاد بوحدانيته. وعندما ننظر إلى السورة كنظام ننتبه أنّ الله كلّما تحدّث عن المؤمنين والمشركين فى هذه السورة عبّر عن صفاتهم بالفاعل والمضارع لإفادة الثبوت والاستمرار فى أمر الاعتقاد بكلية السورة أو رفضها؛ وإحصائه كما يلى:

–	عدد التواتر	النسبة المئوية
مجىء الفاعل بالاستبدال فيما يتعلق بالله تعالى	٢	٣/٩٢
مجىء الفاعل بالاستبدال فيما يتعلق بالمؤمنين	٣٠	٥٨/٨٢
مجىء الفاعل بالاستبدال فيما يتعلق بالكافرين	١٩	٣٧/٢٦
المجموع	٥١	٪١٠٠

استبدال الضمير بالظاهر

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]
﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]
﴿...جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]

Archive of SID

www.SID.ir

لم يقل "وهو عزيز ذو انتقام" بل قال "والله عزيز ذو انتقام" وقس عليها بقية الآيات. ومن يستقرئ سورة آل عمران ينتبه أنّ مفردة "الله" التى هى رمز الوحدانيّة كثرت كثارة وجاءت مائة وثمانى وسبعين مرة وهو أمر يدلّ على أهمية التوحيد الذى هو كلية السورة. فمن منظار الكليّة استبدل الضمير بالظاهر فى بعض الآيات للاعتداد بأمر مهم وهو الوحدانيّة.

وهاكم جدول تواتر استبدال الضمير بالله:

	عدد التواتر	النسبة المئوية
"الله" بالاستبدال	٧٧	٤٣/٢٥
الله دون الاستبدال	١٠١	٥٦/٧٥
المجموع	١٧٨	٪١٠٠

استبدال الضمير بالموصول

ينطوى مجيء المسند إليه موصولا على دلالات رائعة. ومن الجلىّ أن الموصول يزيد المسند إليه المعانى المنشودة، وذلک عن طريق الصلة، منه:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِکَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِکَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ...وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]

استبدل الضمير بالموصول فى البداية ثمّ زيد ضمير الفصل للتوكيد فلم يقل "إنهم كفروا ، و..." بل قال "إنّ الذين كفروا، و..." إذ إنّ الصلة تشير إلى وجه بناء الخبر، وتُومئ إلى أنّ ما جاء بعد الموصول وقوعه حتميّ ولا شكّ فيه. فـ"الذين كفروا" لايغنيهم أولادهم وأموالهم شيئا من الغنى، ومجيء التنوين على "شيئا" يفيد القلّة والندرة ويرفض أىّ غنىً من جانب الأولاد والأموال للذين كفروا. واقتران الخبر فى الآية الأولى والثانية والرابعة بـ"لن والفاء" يزيد هذا التوكيد. جاء فى تفسير زهرة التفاسير: «"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا" وبهذا يؤكّد سبحانه وقوع الكفر منهم، ويؤكّد سبحانه النفى فى

Archive of SID

www.SID.ir

قوله،"لَـن تغْـنِيَ عَنْهُـمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللهِ شَـيْئًا" إذ نفى بـــ "لن"؛ فالخبران مؤكّـدان: الإثبات والنفى؛ فكفرهم وعدم نفع أعراض الدنيا مؤكّدان.» (أبو زهرة، لاتا: ١١٢٠/٢)

فبإمكاننـا القول إنّ حبّ الكافرين لـلأولاد والأموال وقتلهم الأنبياء و... ناتج عن إنكار الوحدانيّة التى هى كلية السورة ومن ينكر أمر التوحيد فعاقبته لا تعدو أن تكون العذاب كما يخبر الله عنه. وإليک تواتر هذا النوع من الاستبدال:

	عدد التواتر	النسبة المئويّة
استبدال الضمير بالموصول الذى يشبه أداة الشرط فيما يتعلّق بالمؤمنين والكافرين	٢٤	٤٠./.
مجيء الموصول دون الاستبدال	٣٦	٦٠./.
المجموع	٦٠	١٠٠./.

استبدال الضمير بالإشارة

«إنّ الإشـارة تمييز الشيء المقصود أكمل تمييز.» (السامرائى، ٢٠٠٧: ٨٢/١) وذلک بوضعه تحت دائرة الحسّ، حتى يتجلّى فى حس السامع، ويتحقق هذا حين يكون المقام مقام مدح أو مقام ذم، منه:

﴿يُؤْمِنُـونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ... وَ أُولئِکَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾]آل عمران: ١١٤[

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾]آل عمران: ١٠٤[

إنّ الأصل كان هم من الصالحين، وهم المفلحون و... ثمّ زيد الضمير للتأكيد فلم يقل "هم مـن الصالحين، و..." بل أولئک من الصالحـين، و...، لأنّ المؤمنين هم الذين أثبتوا اعتقادهـم بأمر التوحيد بالاسـتمرار فى الإيمان والأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر والمسـارعة فى القيام بالأعمال الصالحة "الجهاد فى سبيل الله، والإنفاق، و..." وتعويد أنفسهم بالصبر والتقوى فبسبب تَحلّى أنفسهم بالأخلاق الحسنة هم يستحقّون أن يتّصفوا بالصالحين وذلک يستفاد من الإشارة لا الضمير ولذا استبدل الضمير بالإشارة.

Archive of SID

www.SID.ir

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: ٩٤]
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠]

لم يقل "هم الظالمون، و..." بل قال "أولئک الظالمون، و..." وزيد الضمير فى الجملة لأغراض ثلاثة، أى: فصل الخبر عن النعت، والقصر، والتوكيد. لأنّ الكافرين نهجوا عكس ما نهجه المؤمنون وهم بسبب شركهم ورفض أمر التوحيد"كليّة السورة" وهكذا الابتعاد عن الجهاد، والإنفاق، وغير ذلک زيّنوا أنفسهم بالأخلاق الذّميمة فأولئک هم الذين يستحقّون أن يوصفوا بالظالمين والفاسقين فى الدنيا والآخرة. جاء فى بحر المحيط: «أولئک إشارة إلى من تقدّم موصوفا بتلک الأوصاف الذميمة.فالإشارة هنا تفيد التنبيه على أنّهم أحقاء بما سيُخبرُ به عنهم بعد اسم الإشارة.» (الأندلسي، ١٤٢٠ق: ٧٨/٣)

	عدد التواتر	النسبة المئوية
استبدال"اولئک" بالضمير فيما يرتبط بالمؤمنين	٣	٣٠/٣٤
استبدال"اولئک" بالضمير فيما يرتبط بالكافرين	٦	٦٦/٦٦
المجموع	٩	٪١٠٠

استبدال جمع الكثرة بالقلة

قد يقع جمع الكثرة موقع جمع القلّة لغرض ما وذلک نحو قوله تعالى:
﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٢٢]
﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧]
﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [آل عمران: ٦٩]
﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً ...﴾

Archive of SID

www.SID.ir

[آل عمران: ١٠٣]

عــبرّ عن "الأرحام، والأعمال، والأفواه، والأنفس، والأعداء، والأنصار، و..." بجمع القلّــة بدل جمع الكثــرة للدلالة على أنّها وإن جاوزت الحصر فهى كالواحدة بالنســبة له ويقع جميعها تحت قدرته وسـيطرته وإشرافه بســبب وحدانيته فى الربوبية التى كان الكافرون ينكرونها بالتوكيد. وإليک جدول تواتره:

	عدد التواتر	النسبة المئوية
جمع القلة	٤٦	٥٦/٠٩
جمع الكثرة	٣٦	٤٣/٩١
المجموع	١٠٠	./.١٠٠

أ أو هل

هناک حرفان للاســتفهام، أى: "هــل، والهمزة" وتعتبران من الحــروف المتقاربة فى المعنــى؛ بدليل صحة وقوع أحدهما بدلا من الآخر فى بعــض الأحيان، ولا يتمّ اختيار إحداهما على المحور الاســتبدالىّ إلا بحسـب ما تســتدعيه البنية. وهنا تجدر الإشارة أوّلا فى بيان أوجه التشــابه والاختلاف بين الحرفين إلى «أنّ "الهمزة" أوسع استعمالا.» (السـامرائى، ٢٠٠٧م: ١٩٩/٤) من "هل"؛ «لكونهــا أم الباب؛ وذاک لمجيئها فى طلب التصور والتصديق، بخلاف "هل"، فإنّها لا تأتى إلا لطلب التصديق.» (الأنصارى، ٢٠٠١م: ١٣/١) وهذا يعنى وجود اشتراک دلالىّ بينهما من حيث طلب التصديق، ولكن لا يعنى هذا الاشــتراک أنّ الحرفين سواء فى هذا المعنى، بل هناک فروق تستلزم إيثار أحدهما على الآخر بحســب البنية، وإلا فمن البُعد وضع حرفين بدلالة واحدة، أوبعبارة أخرى، فلو كانت الدلالة نفســها بين الحرفين لاكتفى بـ"الهمزة" إيجازا واختصارا؛ لأنها تؤدّى معنى التصور والتصديق. فالهمزة «هى الأصل للاســتفهام و المراد به طلب الإفهام فلم تخرج عَن موضوعها ولم تســتعمل لنفى ولا بمعنى "قد" بخلاف "هل" ومن أجل أصالتها فيه اختصّت بالحذف أَى بجواز حذفها كقول الشاعر:

طَرِبْتُ وَمَا شَوْقاً إِلَى الْبيض أَطْرَبُ ... وَلَا لَعِبًا منى وذُو الشّيْبِ يَلْعَبُ

Archive of SID

www.SID.ir

أَراد أَو ذو الشيب، وتدخل على النَّفى والإثبات نحو ألم يقم زيد وهكذا على "واو العطف وفائه وثمّ" تنبيها على أصالتها فى التصدير نحو: "أولم يَسِيُروا فِي الأَرْض" [الرّوم: ٩] بخلاف "هل" التى لا تتقدم على العاطف بل تتأَخّر عنه، نحو: "فَهَل أَنْتُم مُنْتَهُونَ"[الْمَائِدَة: ٩١]» (السيوطى، لاتا: ٥٨٢/٢)

وما أسلفنا الذكر عنه يتعلّق بالفروق اللفظية بينهما، غير أنّ هناك فروقا معنوية أخرى بينهما بحيث لا تتضح إلا من خلال استبدال أحدهما بالآخر فى البنية"فى الموضع الذى يشترك بينهما فى التصديق"، فإنّ لاستبدال أحد الحرفين مع إمكان وقوع الآخر دلالة معنويّة وليس لمجرّد الجواز فحسب، فكلّما كان الموضع موضع الشدة كـ"الإنكار الإبطالىّ والإنكار التوبيخىّ والأمر والتقرير" استدعت الجملة، الهمزة «لأن الهمزة من الأصوات المهجورة التى صوتها شديد مصمت منفتح ومستقل.» (بحرى، لاتا: ٣٥) منه: ﴿أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦]

إنّ الموضع هنا موضع الشدة والتهديد إذ إنّ المسألة مسألة الوحدانية التى هى كلية السورة. وذلك تتطلّب الإسراع إليها والإعراض عن الكفر بها فلذلك استبدلت "هل" بـ"الهمزة"، وإن كان المعنى بـ"هل" صحيح غير أنّ فى الهمزة معنى لا نجده فى الاستفهام بـ"هل".

وهناك موضع استبدل "هل" بـ"الهمزة":

﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]

هذا استفهامٌ على سبيل الإنكار والمراد منه هنا إظهار الشَّفقة، أى: أنّه متى يكون الفرجُ والنُّصرة؟ أو هل لنا من أَمر الله نصيب. فالسياق سياق الرخوة دون الشدة. إذ إنّ "الهاء" «صوت مهموس رخو منفتح ومستقل و"اللام" مجهور منحرف منفتح بين الشدة والرخاوة.» (بحرى، لاتا: ٣٥-٣٦) وإليك جدول تواتر هذا النوع من الاستبدال:

Archive of SID

www.SID.ir

	عدد التواتر	النسبة المئوية
أ	٨	٨٨/٨٨
هل	١	١١/١٢
المجموع	٩	٪١٠٠

إن أو إذا

هناک تشـابه بين "إذا وإن" فی دلالتهما علی الشـرط فی الاستقبال إذ إنّنا لا نجد فرقا بينهما غير بعض الفروق المعنويّة الخفيفة التی لا تتّضح إلا من خلال اسـتعمالهما فـی البنية فلا يمكن اسـتبدال أحدهما بالآخر أو إيثار إحداهمـا علی الآخر إلا بناءً علـی تلک الفروق والبنية التی تردان فيها، ف"إن و إذا" للشـرط فی الاسـتقبال لكن «أصل "إن" عدم الجزم بوقوع الشـرط، وأصل "إذا" الجزم بوقوعه.» (تفتازانی، ١٣٧٨: ١٣٩/١) وبنـاءً علی ذلک تسـتعمل "إن" فی المعانی المحتملة الوقوع والمشـكوک فی حصولها، وتأتی"إذا" للمقطوع بحصوله ولهذا ترى كلّما خاطب الله المؤمنين والمشـركين استبدلت "إذا" بـ"إن" بسبب كلية السورة، نحو قوله تعالی :

﴿قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِی يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]

﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]

دخلـت "إن" فی هذه الآيات علی المحور الاسـتبدالیّ بـدل "إذا" للإفادة بأن حبّ الله، والصبر، والتقوى، والإيمان بالله، وعدم إطاعة المؤمنين للمشـركين أمر متوقّع بسبب اعتقادهم بكليّة السورة، أی: الوحدانيّة.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢٠]

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]

والعكس صحيح فيمـا يرتبط بالكافرين لأنّ الإعراض والتولّی وعدم الصدق فيما يقولون أمر ينتظر منهم بسبب رفض كلية السورة من جانبهم. وإليک الآن جدول تواتر

Archive of SID

www.SID.ir

هذا النوع من الاستبدال:

	عدد التواتر	النسبة المئوية
"إن" فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين	١٦	٨٤/٢١
"إذا" فيما يتعلق بالمؤمنين والكافرين	٣	١٥/٧٩
المجموع	١٩	٪١٠٠

استبدال "سوف" بـ"السين"

تدخل "سوف والسين" لإفادة الاستقبال على المضارع، غير أنّ هناك أقوالا فى دلالة السين وسوف اللتان تدخلان على أوّل المضارع للاستقبال كما ذكرنا: الأوّل: «إنّ السين وسوف تدلّان على الزمن غير أنّ "سوف" أكثر معنى من "السين" ويقصدون بالمعنى ههنا: الدلالة الزمنيّة. فسوف كالسّين غير أنّها أوسع زماناً منها وذلک عند البصريين لما فيها من ارادة التسويف، ومنه قيل فلان يسوّف فلانا، لأن كثرة الحروف تدلّ على كثرة المعنى، ومرادفة لها عند غيرهم.» (يونس، لاتا: ٥) والقول الثانى: «إنّهما حرفا استقبال، وتاتيان للدلالة على الاستمرار.» (يونس، لاتا: ٨) يرفض ابن هشام الأنصارى هذا القول: «إنّ الاستمرار يستفاد من المضارع، والسين أو سوف مفيدتان للاستقبال.» (الأنصارى، ٢٠٠١: ١٢١/١) والقول الثالث: إن "السين" تأتى: «فى بداية الخطاب لإرادة التعبير، ولا يؤتى فى هذا الموقف إلا بالسين، وذلک أنّها لما دلّت على الزمن القريب، وكان المتكلم يحرص على إثبات فعله اللغوىّ وأنّ حصوله قوىّ إلى درجة أنّه قريب الوقوع، فلايعبّر بسوف الدالة على تراخى الحدث فى آنات الزمن البعيد، فالعربىّ الناطق لا يبدأ جملته بفعل مستقبل بعيد، لأنّه يدرک أن هذا الابتداء مخالف لغرضه الدلالّى، ومُستدعٍ لضعف حدثه اللغوىّ الذى يريد تقويته فى ذهن السامع.» (يونس، لاتا: ١٦) منه:

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ ...﴾ [آل عمران: ١٥١]

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ...﴾ [آل عمران: ١٨]

بعد التصفّح فى سورة آل عمران نجد أنّ "سوف" استبدلت بـ"السين" فى كلّ الآيات

Archive of SID

www.SID.ir

وذلک ناتج عن رفض کلیّة السورة، أو قبولها. فإجابة من یرفض أمر التوحید تتطلّب التهدید والتخویف ویتمّ ذلک بمعونة "السین" لا "سوف" لأنّ أمر التهدید لا یؤجّل. فیقذف الله فی قلوبهم عن قریب الخوف والفزع بسبب إشراکهم بالله وعبادتهم معه آلهة أخری من غیر حجة وبرهان. ویأمر الحفَظَة بکتابة ما قالوه فی صحائف أعمالهم وجریمتهم الشنیعة الناشئة عن قتل الأنبیاء بغیر حق ویخبرهم عن هزیمتهم دون المهلة والتراخی. فیقتضی رفض کلیة السورة التهدید والوعید وذلک لا یناسب التسویف والتأخیر. والعکس صحیح فیما یتعلق بالمؤمنین والشاکرین فهم بسبب اعتقادهم بأمر التوحید یُبشّرون بالثواب الجزیل عن قریب. وإحصائها یکون کما یلی:

جدول تواتر استبدال "سوف" بالسین

	عدد تواتر	النسبة المئوية
سوف	–	–
السین	٥	٪١٠٠
المجموع	٥	٪١٠٠

النتائج

بما أنّ البنیویّة تهتمّ باللغة وتجعلها تحت دائرة حسّها تمکن دراستها فی أیّ نصّ من النصوص، دینیا کان أم غیر دینیّ فلا تقلّل من اعتبار النص کما رأینا فی التطبیق بل تزید النص اعتبارا وأهمیة.

صحیح أنّ الانتباه إلی جمیع وجوه المعنی فی هذه السورة بسبب عدم اعتداد البنیویة بخارج النص والاکتفاء بما یقع داخل النص أمر مستحیل غیر أنّها بسبب إلقائها الضوء علی ما یکون داخل النص والنظرة إلیه کنظام تکشف عن الکثیر من الإبهامات داخله کما رأینا فی دراستنا. فهی أفضل طریق لغویّ لإماطة اللثام عن معالم الإعجاز فی هذه السورة، إذ إنّ الکثیر من الأسئلة فیما یتعلّق بها لیست بإمکاننا الإجابة عنها إلا من خلال التدبّر فی النص وفی إطار الکلیّة.

إنّ إحصاء الکلمات الصرفیة فی هذه السورة تشیر إلی أنّ هناک الکثیر من

Archive of SID

www.SID.ir

المفردات استبدلت بالكلمات الأخرى فى إطار النظام للدلالة على الوحدانية، ومن أهمّها كما أسلفنا الذكر عنها فى التطبيق تجدر الإشارة إلى استبدال "سوف" بالسين والماضى بالمضارع وعكسه.

من خلال مرورنا بتطبيق المحور الاستبدالىّ فى سورة آل عمران رأينا أن الانتباه إلى معنى بعض المفردات أمر مستحيل ولايتمّ إلا بمعونة هذا المحور وذلك فى إطار النظام لا غيره. فكما علينا أن نهتمّ بما يقع خارج النص للحصول على المعنى الذى تتطلّبه السورة، علينا إلقاء الضّوء على ما يقع داخل النص خاصة محور الاختيار وفق رؤية سوسور لا المنهج النقدىّ القديم الذى يغفل الكلية، وتنحصر دراسته داخل النص فى الجملة ولاتتجاوزها.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسى. ١٩٨٤م. التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

أبو زهرة، محمد بن أحمد. (لاتا). زهرة التفاسير. بيروت: دار الفكر العربى.

الأندلسى، أبوحيان. (١٤٢٠ق). البحر المحيط فى التفسير. تح: صدقى محمد جميل. بيروت: دار الفكر.

الأنصارى، ابن هشام. (٢٠٠١م). مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب. ط١. تحقيق: أبو عبدالله على عاشور الجنوبى. بيروت: دار إحياء التراث العربى.

بازرگان، عبدالعلى. (١٣٧٥ش). نظم قرآن. تهران: انتشارات قلم.

پای، ماریو. (١٩٩٨م). اسس علم اللغة. ط٢. ترجمة وتعليق: الدكتور أحمد مختار عمر. القاهرة: عالم الكتب.

التفتازانى، سعدالدين. (١٣٧٨ش). شرح المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى (المعانى والبيان والبديع). قم: منشورات دار الحكمة.

التونسى، ابن عاشور. (١٩٨٤م). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.

جاكسون، ليونارد. (٢٠٠٨م). بوس البنيوية الأدب والنظرية البنيوية. ط٢. تح: ثائر ديب. دمشق: دار الفرقد.

الجرجانى، عبدالقاهر. (١٩٩٥م). دلائل الإعجاز. تح: محمد التنجى. بيروت: دارالكتاب العربى.

حسان، تمام. (١٩٩٤م). اللغة العربية معناها ومبناها. مصر: دار الثقافة.

Archive of SID

www.SID.ir

حمود، عبدالعزيز. (۱۹۹۸م). المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيک. الكويت: عالم الكتب.
الداية، فايز. (۱۹۹٦م). علم الدلالة العربى. ط۲. النظرية والتطبيق: دراسة تاريخية –تأصيلية–نقدية. دمشق: دارالفكر.
الزركشـــى، أبو عبدالله. (۱۳۹۱ش). البرهان فى علوم القــرآن. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دارالمعرفة.
الزمخشــرى، أبوالقاســم محمود بن عمر. (۱۹۹۳م). المفصل فى صنعة الإعــراب. تحقيق على بو ملحم. بيروت: مكتبة الهلال.
السامرائى، فاضل صالح. (۲۰۰۷م). معانى النحو. بيروت: دار إحياء التراث العربى.
الســيوطى، جلال الدين. (لاتا). همع الهوامع فى شــرح جمع الجوامع. تح: عبد الحميد هنداوى. مصر: المكتبة التوفيقية.
عبدالعزيز، محمد حسن. (۱۹۹۰م). سوسير رائد علم اللغة الحديث. القاهرة: دار الفكر العربى.
دى سوســور، فرديناند. (۱۹۸۵م). دروس فــى الألســنية العامــة. ترجمه: صالح القرمــادى، محمد الشاوش،محمد عجينه. طرابلس: الدار العربية للكتب.
المجلات الجامعية
الصويان، ســعد العبد الله. (۲۰۰۱م). «النظرية اللغويةعند فرديناند دى سوســور». مجلة الدراســات اللغوية. مجلد ۳. العدد ۲ (ربيع الآخر– جمادى الآخر ۱٤۲۲ق/يوايو–سبتمبر).
الرسائل الجامعية
بحرى، نوارة. «نظرية الإنســجام الصوتى وأثرها فى بناء الشــعر». (دراسة وظيفية تطبيقية فى قصيدة "الموت والاضطرار" للمتنبى). رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه فى اللغة العربية.
توامه، عبد الجبار. (۱۹۹٤م). القرائن المعنوية. رسالة دكتوراه فى النحو العربى: جامعة الجزائر.
نابى، نســيم.(۲۰۱۰–۲۰۱۱م). مناهج البحث اللغوى عند العرب فى ضوء النظريات اللسانية (مذكرة لنيل درجة ماجيستر). الجزائر: جامعة مولود معمرى (تيزى وزو).
يونس، محمد ذنون. (لاتا). مشــكلة زيادة المبنى ودلالتها على زيادة المعنى دراسة تطبيقية على السين وسوف فى القرآن الكريم. جامعة الموصل: كلية الآداب.

Archive of SID

www.SID.ir